ابن أبي حجلة التلمساني وما بقي من مقاماته [1]

ا. قهلوز عبد القادر

المركز الجامعي مرسلي عبد الله تيبازة.

الملخص:

يهدف هذا المقال في جزئه الأول إلى الترجمة لابن أبي حجلة التلمساني ترجمة موجزة، وإلى التعريف بمقاماته بشكل عام، وكذا محاولة إحصاء ما عُرف من عناوينها، أو مناسبات تأليفها، وما وُجد منها، أو من أجزائها، فيما تسنى الحصول عليه من كتبه المطبوعة والمخطوطة، وكتب أدباء ومؤرخي عصره.

الكلمات الدالة:

ابن أبي حجلة التلمساني مقامات.

مقدمة:

زخرت الجزائر بالكثير من رجال العلم والدين، والفكر والأدب، عبر حقب تاريخها الطويل، وماضيها السحيق، والذين تميزوا في زمانهم، وذاع صيتهم في مشارق الأرض ومغاربها، وانتشرت كتبهم وأعمالهم بين الناس، ولكنهم للأسف الشديد ما زالوا مجهولين اليوم عند عامة أبناء وطنهم، بل حتى عند خاصتهم من الدارسين والمثقفين، وما زالت أغلب تآليفهم مخطوطة تعاني التلف والنسيان فوق رفوف المكتبات، ودور المخطوطات، في أنحاء العالم المختلفة.

ومن هؤلاء العلماء والأدباء الموسوعيين الذين جمعوا أصناف العلوم في عصرهم، وبرعوا في الأدب، منظومه ومنثوره: ابن أبي حجلة التلمساني، صاحب التصانيف العديدة، والشعر الرائع، والنثر الفائق...وصاحب المقامات المشهورة، التي تشهد بعلو كعبه في هذا الفن، وبمجاراته لرجاله وأعلامه؛ فمن هو هذا العالم الفقيه، والشاعر الأديب؟ وما شأن مقاماته؟ وأين تكمن أهميتها؟ وما سبب شهرتها؟ وما هي أقسامها؟ وما الدافع إلى كتابتها؟ وما عددها؟ ومن بطلها؟ ومن راويها؟ وما هي عناوينها؟ وما مناسبات تأليفها؟ وهل وُجدت كاملة أم وجدت أجزاء منها فقط؟ وهل طبعت أم ما زالت مخطوطة؟... تلك أهم الأسئلة التي حاول هذا المقال في جزئه الأول الإجابة عنها.

أولا: ترجمة ابن أبي حجلة التلمساني[1]:

ولد شهاب الدين، أبو العباس، أحمد بن يحي بن أبي بكر، المعروف بابن أبي حجلة في زاوية جده بتلمسان سنة 725ه/ 1325م؛ ولعله أخذ بها ما تيسر من العلم على عادة الصبية آنذاك، ثم سافر رفقة أفراد أسرته لأداء فريضة الحج، ولكن يبدو أن أمرا جسيما حدث لهم بعد إتمام مناسكهم، إذ توفوا جميعا ولم يبق إلا هو، والغريب أنه لم يعد إلى بلده، بل يمم شطر دمشق، فنشأ بها يتعلم بمدارسها، ويأخذ عن شيوخها، حتى نبغ في العلم والأدب، واشتهر أمره بها، وعرف بين علمائها وشيوخها؛ ولكن يظهر أن طموحه كان أكبر من أن يستقر بهذا البلد، إذ نراه يتوجه إلى القاهرة وكانت إذذاك حاضرة دولة المماليك البحرية ومركز العلم والعلماء في حوالي سنة 753ه/ 1352م، ليتولى بها مشيخة الصوفية في صهريج منجك، وليتصل بسلطان الدولة وقتها الحسن بن الناصر محمد بن قلاوون (ت762ه/ 1361م)[2] فعاش في كنفه، واغترف من خيره، وألف باسمه أشهر كتبه.

وبعد موت هذا السلطان، اتصل بمن خلفه في الملك، فنال القرب والحضوة عندهم، وعند رجال دولتهم، من وزراء، وقادة، وعلماء، وقضاة، وغيرهم... وهكذا مكث بالقاهرة أكثر من عشرين عاما، ظل خلالها ينظم، ويكتب، ويؤلف، ويسجل حوادث عصره حتى وافاه أجله بها سنة 776ه/ 1375م متأثرا بمرض الطاعون الذي غشي البلاد.

ورغم أن الرجل لم يعمر طويلا، فقد عاش إحدى وخمسين سنة فقط، إلا أنه يعتبر من أكثر أبناء عصره نظما وكتابة وتدوينا، فقد ألف أكثر من ثمانين مصنفا وعنوانا، منها ما لا يزيد على بضع وريقات، ومنها ما يقرب من الثلاثين مجلدا، وذلك في فنون شتى، ومجالات متعددة، من فقه، وحديث، وتاريخ، وطب، وكيمياء، وشعر، ونثر... ومن تلك التآليف ما فُقد وهو الأكثر ومنها ما طبع وهو قليل جدا ومنها ما بقي مجهولا أو مخطوطا في مكتبات الشرق والغرب، كما هو حال جل مقاماته.

ثانيا: مقامات ابن أبي حجلة:

تعتبر مقامات ابن أبي حجلة التلمساني مما ضاع من مؤلفاته الكثيرة، ومن حسن الحظ أن بعضها، وبعض الأجزاء منها، وكذا بعض الإشارات إلى عناوينها أو مناسباتها، ما زالت مبثوثة ومذكورة بين ثنايا بعض كتبه المطبوعة، وفي جزء من مصنفاته المخطوطة، وفي بعض كتب علماء وأدباء عصره... ولأجل تسليط الضوء على هذه المقامات، وعلى أهم الجوانب منها، رأيت أن أفصل الحديث عنها في العناصر الآتية:

01. أهميتها:

تكتسي مقامات هذا الأديب أو بالأحرى ما بقي منها أهمية بالغة من عدة نواح، فبالإضافة إلى فائدتها الأدبية واللغوية، التي تعكس الميزات الأسلوبية والفكرية لأدباء ذلك العصر عموما، ولمؤلفها على وجه الخصوص، فإن لها أهمية بالغة من الناحية الاجتماعية، والتاريخية، والجغرافية، والسياسية، خاصة ما تعلق منها بمصر ومجتمعها، وتاريخها، وجغرافيتها، وعلاقاتها الخارجية... فقد استطاع هذا الرجل الغريب عن المجتمع المصري أن يندمج فيه بسرعة، وأن يعلم خباياه وتفاصيله الدقيقة، وأن يصور مظاهر أفراحه التي تصل أحيانا إلى حد المجون، ومظاهر أحزانه ومآسيه، وأن يؤرخ لأحداث مهمة في تاريخه، كفيضان النيل وما كان يخلفه من دمار في الكثير من الأرجاء والبقاع، وكحلول الطاعون وما كان يحصده من أرواح، وما يتركه من أحزان، وكمجيء الغزاة وما كانوا يرتكبونه من جرائم، وما يتركونه من خراب وبكاء وعويل، وكيف كان رجال الدولة يستعدون للرد عليهم لغزو ديارهم، والثأر منهم... ولأجل ذلك، تشكل هذه المقامات في نظري مادة هامة للباحثين، خاصة المشتغلين بالأدب المملوكي، وبتاريخ وجغرافية مصر وما جاورها في تلك الفترة من الزمن، وسوف يظهر ذلك أكثر عند معرفة عناوينها ومناسبات تأليفها في هذا الجزء الأول من المقال، ولعله يظهر أكثر عند الاطلاع عليها، وقراءة محتواها، في الجزء الثاني منه إن شاء الله تعالى.

02. شهرتها:

لقد حظيت مقامات ابن أبي حجلة في مجملها بشهرة واسعة، وقوبلت بعبارات التنويه والإعجاب من قبل الكثير من رجال عصره، ولعل مما يدل على ذلك، قول صديقه أبي العباس القلقشندي في معرض ثنائه عليه: «... **والصديق الذي كانت منه عوائد الوفاء مألوفة، وشيخ الصوفية الذي لا عجب إن كانت له المقامات الموصوفة...**»[34]؛ وقول ابن حجر العسقلاني عند ترجمته له: «... **وأنشأ مقاماتٍ أجاد فيها...**»[5].

ويظهر أن بعض هذه المقامات اشتهرت مقارنة بأخواتها، ومن ذلك مقامته «**الزعفرانية**» التي ألفها بسبب فيضان النيل سنة 773ه/ 1371م، فقد أعجب بها القلقشندي وأدرج قسما كبيرا منها في أواخر «**صبح الأعشى**»[6]؛ كما أشار ابن حجر إلى شهرتها أيضا عند تأريخه لحوادث هذه السنة فقال: «... **وفيها زاد النيل زيادة مفرطة، وثبت إلى أيام من هاتور، فاجتمع جماعة بالجامع الأزهر، وبجامع عمرو، وسألوا الله تعالى في هبوطه، وكرروا ذلك، فهبط وزرع الناس، وقال في ذلك شهاب الدين بن العطار مقاطيع، وشهاب الدين بن**

أبي حجلة مقامته المشهورة...»[7]؛ أما جلال الدين السيوطي، فقد نوه بها في كتابه «**حسن المحاضرة**»[8]، وأدرج جزءا منها أيضا في كتابه «**كوكب الروضة**»[9].

03. أقسامها:

بداية، يجب التنبيه إلى أنه ليس من السهل تحديد الفترة الزمنية التي بدأ فيها ابن أبي حجلة كتابة مقاماته، فبعضها شرع في تأليفها في مرحلة متقدمة من عمره، أي منذ أيام نشأته بدمشق وقبل رحلته إلى القاهرة واستقراره بها، وأما بعضها الآخر، فقد ألفها في فترة اتصاله بالسلطان حسن بن قلاوون[10]، كما أن قسما آخر منها كتبها بعد موت هذا السلطان، ثم واصل كتابتها حتى أواخر حياته.

واجتنابا للخلط بين مختلف هذه المقامات، رأيت أن أقسمها إلى قسمين اثنين:

القسم الأول: وهي المقامات التي أطلق عليها مؤلفها اسم « **مقامات المقام** »، والتي عارض بها مقامات الحريري.

القسم الثاني: وهي مقاماته الأخرى التي لم أعثر على إشارة من مؤلفها، أو من مؤلفي عصره بناء على ما اطلعت عليه من الكتب المطبوعة أوالمخطوطة إلى أنها من مقامات المقام المذكورة، ولذلك خشيت أن أدرجها معها وهي ليست منها، فجعلتها في قسم مستقل، وعنونتها باسم « **مقاماته الأخرى** ».

وسوف أحاول أن أفصل الحديث عن كل قسم منها على النحو الآتي:

القسم الأول: مقامات المقام:

أ. الدافع إلى كتابتها:

يبدو أن أديبنا كان في أول أمره يقرأ مقامات الحريري على مسامع السلطان حسن بن قلاوون[11]، ويسامره بها، ويسليه بحكاياتها، وربما شرح له غريبها، وبيّن له معانيها، ثم أمره السلطان بعد ذلك بمعارضتها، والنسج على منوالها، فتلقى الأمر بصدر رحب، وعد ذلك تشريفا له، ودليلا على تميزه عن أدباء عصره، قال في مقدمتها: «**... وكانت مقامات الحريري مما وضع لنشاط قاريه، وبسط راويه، لا تمل أسمارها، ولا تُرخي على غير بنات الأفكار أستارها، طالما سافرتْ في طرق سطورها العيون، وسامرَ بها في غيبه البدر ابن بدرون، وكنتُ قد حكيتُ سمرها، ونثرتُ زهرها، بحضرة السلطان، السعيد، الشهيد: الملك الناصر، رحم الله شبابه، وجعل من الرحيق المختوم شرابه، فأمرني**

بمجاراتها، وعدم التبري من مباراتها، عالما أنه لا ينسج على منوال الحريري إلا حابك الكلام، ولا يطيق سجعه إلا ذوات الأطواق من الحمام، فامتثلت أمره المطاع، ونابلت شقو الحريري بهذا الرقاع...»[12].

ويظهر أيضا أنه أكملها بعد موت هذا السلطان، وذلك بأمر من أحد رجال الدولة، قال في هذا الشأن: «... **فأنشأت بعضها في حياته، وبقيت كالجسم بعد وفاته، فأمرني بإتمامها بدر التمام، ومن أغارُ على أكمامه من زهر الكمام:**

أغارُ إذا آنست في الحي أنة ... حِذارا وخوفا أَن تكون لحبه

فأجبته إلى ما سأل، وقابلتُ أمره بالقبل، فهأنا ذا أدندن حولها، وأغازل نولها، فإن أصبت فلي من الشكر والشكران نصيب، وإن أخطأت فالمجتهد يخطئ ويصيب...»[13].

ولكن يبدو أيضا أن بعض منافسيه أنكروا عليه معارضته هذه، فقد ذكر ابن حجر ذلك في ترجمته له فقال: «...**وعارض المقامات فأنكروا عليه**»[14].

وليس بين أيدينا أسماء من أنكروا عليه ذلك، ولا سبب إنكارهم، ولكن يبدو أنهم من منافسيه وحاسديه من أدباء عصره، فقد ذكر هو نفسه أن خصومه من الأدباء والشعراء كانوا كثيرين، منهم من كان بالشام، ومنهم من كان بمصر، وكان كثيرا ما يهجوهم، ومن ذلك قوله من قصيدة:

إني بليت بقوم لا خلاق لهم ... عليهم من ثياب اللؤم خلقان
كم حاسد منهم في قلبه مرض ... وما لداء مريض القلب بحران
لما رأوني أبا الغيلان من كبر ... أمسوا وهم في فعل السوء غيلان
في الشام منهم وفي مصر فذاك وذا ... إذا ربطتهما في النير ثيران[15].

ب. عددها:

صرح ابن أبي حجلة في كتابه المخطوط «**منطق الطير**» بأن مقاماته التي عارض بها مقامات الحريري كانت قد بلغت سنة 770ه/ 1368م سبعا وعشرين مقامة، منها سبع مقامات أنشأها باسم السلطان حسن بن قلاوون[16]، فقد نبه إلى ذلك عند تعداده لمصنفاته في هذا السلطان فقال: «... **ومنها سبع مصنفات تختص بالسلطان حسن رحمه الله، وسبع مقامات تختص به أيضا، من جملة سبع وعشرين مقامة أنشأتها في معنى مقامات الحريري**»[17].

ت. بطلها وراويها:

أسند أديبنا روايةَ معظم «**مقامات المقام**» إلى الساجع بن حمام، وهو نظير « الحارث بن همام « عند الحريري، كما أسند بطولتها إلى أبي الرياش، وهو نظير «أبي زيد السروجي» في تلك المقامات؛ ولنستمع إليه وهو يعلل سبب اختياره لهاتين الشخصيتين، ويعرفنا ببعض أوصافهما، والعلاقة التي تربطهما، قال: «... **وأسندتُ إلى الشيخ أبي الرياش درايتها، وإلى الساجع بن حمام روايتها، وذلك لما بين الساجع واليمام من الأمام، ولأن الحجل نوع من الحمام، فأبو الرياش صاحب الكيد، القائم مقام أبي زيد، والساجع بن حمام، نظير الحارث بن همام، وربما تطارحا في الأدب، وتنافسا في الرتب، فهما تارة يصطحبان، وأنوة يصطخبان، لكن أبو الرياش قائد كدرها، ومتولي كبرها، فهو صاحب الأمر المهول، المتلون كما تلون في أثوابه الغول:**

قريب بعيد أبله، ذو فطانة سخي بخيل مستقيم معوج

يميل مع المال، ويستحيل في الحال، وإن كان بمصر أبو الهول فهو هول من الأهواء:

ذو فنون يريك في كل يوم خلفا من جفائه مستجدا»[18].

ث. عناوينها ومناسباتها:

ليس بين أيدينا من عناوين « **مقامات المقام** « السبع والعشرين إلا عناوين إحدى عشرة مقامة، ذكر مؤلفها عشرة كاملة منها في كتابه المخطوط «**منطق الطير**»، وذكر عنوانا آخر في كتابه «**دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة**»[19].

هذا، ويلاحظ أن أغلب هذه المقامات سميت بأسماء أماكن بعينها، خاصة الواقعة بإقليم مصر، ومن ذلك المقامة الإسكندرانية، والجيزية، والزعفرانية، والقاهرية...

أما الأسماء الأخرى، فمنها ما ارتبط بمناسبة محددة مثل المقامة الربيعية التي ألفها بمناسبة المولد النبوي في شهر ربيع الأول؛ ومنها ما ارتبط بحادثة معينة، كمقامة العين الساهرة التي ألفها بسبب الطاعون، والمقامة الحرامية التي ألفها بسبب فيضان النيل... ومنها ما ارتبط باسم إحدى شخصياتها، مثل المقامة الزرزورية نسبة إلى اسم بغلته زرزورة...

وسوف أحاول ترتيب هذه المقامات بناء على الأقدم تأليفا منها، أما التي لم أستطع تحديد تاريخ تأليفها، فقد ذكرتها بعد أخواتها، فجاء الترتيب على النحو الآتي:

• **مقامة العين الساهرة فيمن حل بالساهرة:** كتبها سنة 761ه/ 1345م إثر الطاعون الذي ضرب بلاد الشام ومصر في تلك الفترة، وأهلك الحرث والنسل، وقد رثى فيها جملة من الأعلام الذين ماتوا به، وأدرجها كاملة في كتابه « دفع النقمة »، وقال عنها: « ... **وقلت أنا من جملة المقامات التي أنشأتها في معنى مقامات الحريري حين خرج الناس إلى الدعاء بقبة النصر بالقاهرة، في سنة إحدى وستين وسبعمائة، وسميتها العين الساهرة فيمن حل بالساهرة...** »[20]؛ كما أثبتها السيوطي أيضا في آخر كتابه « كشف الغمى في فضل الحمى »[21].

• **مقامة واقعة الواقعة:** وهي التي ألفها بسبب سقوط إحدى مآذن مدرسة السلطان حسن بن قلاوون[22] التي بناها قرب قلعة الجبل بالقاهرة، وكان سقوط هذه المنارة في يوم السبت السادس من ربيع الآخر سنة 762ه/ 1361م، وفيها وصَف هذه الواقعة الأليمة، وذكَر هلاك من كان تحتها من الأطفال اليتامى؛ وقد ذكر جزءا من هذه المقامة في كتابه المخطوط «**منطق الطير**»[23].

• **المقامة الزرزورية:** ويبدو أنها مقامة هزلية، جعل مدار أحداثها حول بغلته « زرزورة » التي كان السلطان الناصر حسن بن قلاوون[24] قد أهداه إياها، وذلك في فترة اتصاله به، أي قبل سنة 762ه/ 1361م، وهي سنة وفاة هذا السلطان؛ وقد ذكر جزءا منها أيضا في كتابه المخطوط «**منطق الطير**»[25].

• **مقامة الخيمة:** وقد ألفها في حياة السلطان المذكور أيضا، وذكر فيها خيمته العظيمة، التي قال عنها ابن إياس في السلوك عن سنة 761 ه/ : وفي هذه السنة عمل السلطان خيمة غريبة الشكل في صنعتها حتى عمل فيها حمام ونصبها في خليج الزعفران،وخرج إليها الناس قاطبة يتفرجو نعليها وصاروا يتعجبون من صنعتها وفيها يقول ابن أبى حجله :

حوت خيمة السلطان كل عجيبة فأصبحت منها باهتا أتعجب

لسانى بالتقصير فيها مقصر وإن كان في أطنابها باتيطنب

• ومدح فيها أيضا الوزير الصاحب فخر الدين ماجد بن قرونة (ت 768ه/ 1366م)[26]، وقد أدرج جزءا منها في كتابه المخطوط «**منطق الطير**»[27].

• **المقامة المَارِدِينيّة**: وتسمى أيضا ب «المقامة الشطرنجي» وهي التي أنشأها باسم السلطان الملك الصالح بن أرتق (ت 766ه/ 1375م)28 صاحب قلعة مَارِدِين[29]، وبعثها إليه من مصر، وذلك بعد موت السلطان حسن سنة 762ه/ 1361م.

وهي مقامة وصف فيها قلعة ماردين، وأدرج فيها مصطلحات الشطرنج؛ قال في التعريف بها: «... **في ذكر المقامة الشطرنجية التي أنشأتها باسم السلطان الملك الصالح صاحب ماردين، وألحقتها بالمقامات التي أنشأتها باسم السلطان الناصر حسن، رحم الله شبابه، وجعل الرحيق المختوم شرابه...**». وقد أدرجها كاملة في آخر كتابه « **أنموذج القتال في نقل العَوَال**»[30]، وذكر جزءا منها في كتابه المخطوط «**منطق الطير**»[31].

ويبدو أن طبيعة موضوع هذه المقامة جعلتها تلقى اهتماما من قبل الغربيين، فنشرت في مانشستر بإنجلترا بين سنتي 1953م 1954م في مجلة جون رايلدنز[32].

• **المقامة الزعفرانية**: وهي من أشهر مقاماته، إن لم تكن الأشهر على الإطلاق، وقد أنشأها بسبب فيضان النيل سنة 773ه/ 1371م كما سبقت الإشارة، ونسبها إلى خليج الزعفران قرب المطرية بالقاهرة، وهي التي أدرج القلقشندي جزءا منها في «**صبح الأعشى**»[33]، وكذلك فعل السيوطي في «**كوكب الروضة**»[34]. وقد ذكرها ابن أبي حجلة كاملة في كتابه المخطوط «**منطق الطير**»[35].

هذا عن «**مقامات المقام**» التي استطعت أن أحدد فترة كتابتها، أما التي لم أستطع تحديد فترة تأليفها، والتي أدرج بعضها، أو بعض الأجزاء منها، في كتابه المخطوط «**منطق الطير**» فقد رتبتها أبجديا على النحو الآتي:

• **المقامة الجيزية**: وفيها ذكر حادثة حفر البحر وما كان يصحبها من فسوق بمدينة الجيزة وأهرامها، وقد أدرج جزءا منها في كتابه المذكور[36].

• **المقامة الحرامية**: وذكر فيها فيضان النيل، وقد أدرج بعضا منها في كتابه المذكور[37].

• **المقامة الربيعية**: وقد ألفها بمناسبة المولد النبوي في ربيع الأول، وذكر جزءا منها في كتابه المذكور أيضا[38].

• **المقامة القاهرية**: وتحدث فيها عن بعض العجائب التي كانت بإقليم مصر، وأثبت جزءا منها في كتابه المذكور[39].

• **المقامة الكتبية**: وسماها أيضا مقامة « **عود الغريب** »، وذكر فيها إعادة إحياء سوق الكتب بعد خرابه، وأدرجها كاملة في كتابه المذكور[40].

القسم الثاني: مقاماته الأخرى:

ينبغي التذكير هنا إلى أنه من المحتمل أن تكون بعض المقامات التي سأذكرها في هذا القسم هي في الأصل من « **مقامات المقام** » السالفة الذكر، ولكن بما أنني لم أجد إشارة من مؤلفها، أو من غيره، إلى أنها من هذا القسم، فإني لم أدرجها فيه مخافة الخلط بين القسمين، وسوف أحاول ترتيب ما علمته منها بحسب أقدمها تأليفا على النحو الآتي:

• **مقامة في وصف المنازل من دمشق إلى القاهرة:** تعتبر هذه المقامة من أوائل مقاماته، ألفها قبل رحلته من دمشق إلى القاهرة، أي حوالي سنة 752ه/ 1351م، وقد أشار إليها في كتابه «**سكردان السلطان**» بقوله: «... **أقول: ومثل هذه الحكاية ما اتفق لي في طريق مصر وذلك أنني كنت أنشأت مقامة وأنا في دمشق سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، وذكرت فيها المنازل من دمشق إلى الديار المصرية، ووصفت كل منزلة بما يتعلق بها، فجاء منها قولي: « فوصلنا الغرابي، وقد نعقت غربانه على الجيف في تلك الروابي، فلم نشعر إلا وبنو بياضة أصبحوا بنا محدقين، كانوا يقصون الأثر خلفنا، فيا لله يا مسلمين »، ثم أني لما سافرت صحبت معي المقامة المذكورة، فلما وصلنا إلى المكان المذكور عند الصباح كما ذكرت، أصبح حولنا جماعة من بني بياضة، فلما سلم الله تعالى منهم، وكفانا شرهم، أخرجت المقامة التي كانت معي، وأوقفت عليها رفقتي في الطريق، وأعلمت أني تخيلت وقوع مثل هذا وأنا بدمشق، فتعجبوا من غرابة هذا الاتفاق، وكان من جملة الرفقاء في الطريق القاضي كمال الدين ابن الصائغ قاضي سرمين الآن، وفي ذلك أقول:**

شاهدت في الرمل أهوالا غرائبها ... لا تنقضي ما بقي في الأرض ديار
من كل شيخ غدا طرطوره عجبا ... كأنه علم في رأسه نار»[41].

• **مقامة عند إبطال عيد الشهيد:** وهو عيد للنصارى كانت ترتكب فيه الكثير من المنكرات، وكان قد أُبطل ثم أعيد إحياؤه، حتى إذا كانت سنة 754ه/ 1353م قام الأمير صرغتمش (ت 759ه/ 1358)[42] بإبطاله مرة أخرى، فأنشأ ابن أبي حجلة مقامة في هذا الشأن، أشار إليها في كتابه « **سكردان السلطان** »، فقال عنها: «... **وكان يتفق بسببه من ركوب الناس في البحر من الفساد ما لا يعبر عنه، فألهم الله تعالى من أجرى الخيرات على يديه: المقر، السيفي، صرغمش الملكي الناصري، أمير رأس نوبة، فأخذ هذا الصندوق وأحرقه، وذلك في سنة أربع وخمسين وسبعمائة... وكنت قد وضعت فيه تلك السنة مقامة جاء منها قولي: « وغرق بقليوب الظلمة الذين هم في خوضهم يلعبون ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ فكم بها من نصراني قد كفر بالإنجيل، ويهودي قال حين أدركه الغرق: ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾** »[43].

• **مقامة في خانكاه شيخو**: الخانكاه كلمة فارسية تعني البيت المخصص لإيواء الصوفية، وهي شبيهة بما يعرف بالزاوية التي يدرس فيها القرآن الكريم، وتلقى فيها الدروس المختلفة، وكانت منتشرة في عهد المماليك، ومن أشهرها الخانكاه التي بناها الأمير شيخو (ت 758ه/ 1357م)[44] سنة 756ه/ 1355م، ونُسبت إليه، وقد ألف ابن أبي حجلة مقامة في هذه الخانكاه أشار إليها المقريزي عند ذكره لما نظم وكتب حولها فقال: « **...وقال الأديب شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد الشهير بابن أبي حجلة المغربي، من مقامة عملها في الخانكاه المذكورة:**

ومدرسة للعلم فيها مواطن فشيخو بها فرد وإيثاره جمع

لئن بات فيها في القلوب مهابة فواقفها ليث وأشياخها سبع »[45].

• **المقامة الإسكندرانية**: ألفها بمناسبة وقعة الإسكندرية التي كانت أوائل سنة 767ه/ 1365م، حيث أغار القبارصة على الإسكندرية وخروبها وقتلوا وأسروا أهلها، وكان ذلك في فترة حكم السلطان الأشرف شعبان بن قلاوون (ت 776ه/ 1377م)[46]، وقد أشار ابن أبي حجلة إلى هذه المقامة في كتابه المخطوط « **منطق الطير** »، ومن ذلك قوله: « **... وقلت من المقامة الإسكندرانية:**

ألا في سبيل الله ما حل بالثغر على فرقة الإسلام من عصبة الكفر

أتاها من الإفرنج سبعون مركب فصاحت بها الغربان في البر والبحر »[47].

• **المقامة الغربانية**: نسبة إلى الغربان، وهي نوع من المراكب البحرية كانت تستعمل في الغزو، وقد ألفها بعد وقعة الإسكندرية المذكورة، أي في سنة 767ه/ 1365م، وتكلم فيها عن عزم الأمير يلبغا الأتابك (ت768ه/ 1366م)[48] على غزو القبارصة، والثأر لهذه الوقعة، وما قام به الوزير فخر الدين ماجد بن قرونة[49] من عمل جبار في إعداد الأسطول، ويظهر أنه مدح فيها المغاربة الذين كانت لهم خبرة في الجهاد البحري، وقد أشار إليها في كتابه المخطوط « **منطق الطير** »[50].

• **دور الزمان في طحن الجلبان**: وهي مقامة كتبها بعد قضاء السلطان الأشرف شعبان[51] على المماليك الأجلاب (الجلبان) الذين كثر فسادهم، وخرجوا عليه، وأرادو خلعه، وقد كان ذلك في صفر من سنة769ه/ 1367م[52].

أولها:... **بينا أنا بالقاهرة أيام هرجها، واستيلاء الخوارج على دخلها وخرجها...**

وآخرها: **ففرح الناس، وزال لباس الباس، فأصبحت العامة سالمين غانمين، وقطع دابر القوم الذين ظلموا.**

والمقامة ما زالت مخطوطة، منها نسخة بدار الكتب المصرية[53].

• **مقامات في مدح شمس الدين ابن الحوشكاش**: وليس بين أيدينا ترجمة لهذا الرجل، ولكن يبدو من اسمه أن أحد أسلافه كان « حوشكاشا « للتتار، وهو الذي يقوم بتحريضهم على المسلمين، وربما كان ببغداد أو ما جاورها، وقد أشار ابن أبي حجلة إلى هذه المقامات في ديوانه الشعري المطبوع، حيث مدحه بقصيدة طويلة أولها:

وبي ظبي غرامي فيه فاشي وشى بي من دموعي فيه واشي

وأشار إلى هذه المقامات بقوله:

مقاماتي بمدحي فيك طارت ولا سيما بسجع أبي الرياش
تطير عقل حاسدها وتأوي إلى الأعشاش في روس الأعشاش[54]

ويبدو أن هذه المقامات ألحقها بمقامات المقام المذكورة، فبطلها هو نفسه بطل هذه المقامات، وهو «أبو الرياش».

• **مقامة في فتح مدينة سيس**: ويظهر أنه مدح فيها نائب حلب الأمير إشقتمر المارديني نائب حلب (ت791ه/ 1389م)[55]، وذلك لأنه فتح مدينة سيس قرب تركيا، وأخذها من يد الأرمن النصارى في التاسع عشر من ذي القعدة من سنة 776ه/ 1375م[56]، وقد أشار إلى مقامته هذه ناسخ ديوانه الشعري المطبوع، والذي كان ينقل عن نسخة بخط ابن أبي حجلة نفسه، وأدرج قصيدة سباعية له في مدح هذا النائب، قال في أولها: « **وقال من مقاماته:**

ما زلتُ أشكو لوعة ورسيسا حتى دهمتَ بدهم خيلك سيسا»[57].

ويظهر أن هذه المقامة من آخر ما كتبه ابن أبي حجلة، فقد توفي بعد هذه الحادثة بحوالي العشرة أيام فقط، إذ كانت وفاته بالطاعون في يوم الخميس، أول ذي الحجة من السنة المذكورة.

خاتمة:

تـم التطـرق في الجزء الأول من هـذا المقال إلى الترجمة لشـخصية ابن أبي حجلة التلمسـاني عمومـا، والتنبيـه إلى أهـم محطـات حياته، وكـذا التعريـف بمقاماتـه، ومحاولة جـرد ما عرف مـن عناوينهـا، ومناسـبات تأليفها، والإشـارة إلى مضان ذكرهـا ووجودها، في كتبـه المطبوعة والمخطوطـة، وفي كتـب غـيره مـن مؤلفـي عـصره... أمـا فيـما يخص الاطـلاع على متـن هذه المقامـات، أو ما بقـي منها، وتصفحهـا ومعرفة أسـاليبها وطريقة كتابتها... فسـوف يكون في الجـزء الثـاني منه إن شـاء الله تعالى.

الهوامش:

1. ينظر في ترجمته: ابن أبي حجلة، مغناطيس الدر النفيس، 19/ ظ 20 / ظ، وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 1/ 329331.
2. هو: أبو المعالي، الحسن بن الناصر محمد بن قلاوون، من أشهر سلاطين المماليك البحرية، عينه الوزراء بعد قتلهم لأخيه المظفر زين الدين حاجي ثم عزلوه، ثم أعادوا تعينه بعد عزل أخيه الملك الصالح، وقد عرف بحزمه، وهيبته، وذكائه، وبأعماله الجليلة التي من أشهرها مدرسته بالقاهرة التي ما زالت حتى الآن، قتله مملوكه يلبغا العمري (ينظر: المقريزي، السلوك لمعرفة دولة الملوك، 4/ 207254، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 10/ 184264).
3. القلقشندي، صبح الأعشى، 246/ 14.
4. القلقشندي، صبح الأعشى، 246/ 14.
5. ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، 329/ 1.
6. القلقشندي، المصدر السابق، 14/ 276279.
7. ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر،1/ 10.
8. السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، 304/ 2.
9. السيوطي، كوكب الروضة، 52/ و، 52/ ظ.
10. مرت ترجمته.
11. مرت ترجمته.
12. ابن أبي حجلة، منطق الطير، 73/ ظ.
13. المكان نفسه.
14. ابن حجر، إنباء الغمر، 81/ 1.

15. ابن أبي حجلة، الديوان، ص315.
16. مرت ترجمته.
17. ابن أبي حجلة، منطق الطير، 7/ و.
18. المصدر نفسه، 73/ ظ 74/ و.
19. ابن أبي حجلة، دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة، 83/ و.
20. المصدر نفسه، 83/ و83/ ظ.
21. السيوطي، كشف الغمى في فضل الحمى، 22/ ظ 24 ظ.
22. مرت ترجمته.
23. ابن أبي حجلة، منطق الطير، 80/ ظ 81/ و.
24. مرت ترجمته.
25. المصدر نفسه، 77/ و77/ ظ.
26. هو: الوزير الصاحب فخر الدين ماجد بن قروينة، تولى الوزارة ونظر الخاص، وقد كان أمينا ومهابا ولكنه عرف بتكبره، توفي تحت العقوبة (ينظر: المقريزي، المصدر السابق، 4/ 309-310).
27. ابن أبي حجلة، منطق الطير، 77/ ظ 79/ و.
28. هو: شمس الدين، صالح بن نجم الدين غازي بن المظفر الأرتقي، من أعظم ملوك بني أرتق وصاحب ماردين وحاكمها لمدة أربع وخمسين سنة، عرف بحزمه وكرمه وحبه للعلم والعلماء وتقريبهم منه (ينظر: ابن حجر، الدرر الكامنة،2/ 202203، وابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، 6/ 329330).
29. مَارِدِين: قلعة مشهورة على قنّة جبل الجزيرة، مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين، وذلك الفضاء الواسع، وقدّامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة، وخانات، ومدارس، وربط... من أحسن وأحصن القلاع قديما (ينظر: ياقوت الحوي، معجم البلدان، 39/ 5).
30. ابن أبي حجلة، أنموذج القتال في نقل العوال، ص145154.
31. ابن أبي حجلة، منطق الطير، 76/ و77/ و.
32. ينظر: محمد عيسى صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، 2/ 163.
33. القلقشندي، المصدر السابق، 14/ 276279.
34. السيوطي، كوكب الروضة، 52/ و، 52/ ظ.
35. ابن أبي حجلة، منطق الطير، 83/ ظ 86/ ظ.
36. المصدر نفسه، 74/ ظ 75/ و.
37. المصدر نفسه، 79/ و 80/ ظ.
38. المصدر نفسه، 74/ و 74/ ظ.
39. المصدر نفسه، 75/ ظ 76/ و.
40. المصدر نفسه، 81/ و83/ ظ
41. ينظر: ابن أبي حجلة، سكردان السلطان، ص62.

42. هو: سيف الدين صرغتمش بن عبد الله الناصري، أحد مماليك السلطان الناصر محمد، ترقى في الحكم حتى أصبح رأس نوبة كبير، وازداد نفوذه أيام السلطان الصالح بن قلاوون، حبسه السلطان حسن في سجن الإسكندرية إلى أن مات به، عرف بفضله وعلمه إلا أنه كان فيه ظلم وجبروت، من آثاره مدرسته التي مازالت قائمة حتى الآن (ينظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، 2/ 206207، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 10/ 257).

43. ابن أبي حجلة، سكردان السلطان، ص3132.

44. هو: سيف الدين شيخو العمري الناصري، أحد مماليك السلطان الناصر محمد، ترقى في الحكم حتى أصبح مدبر المماليك الإسلامية بالديار المصرية، قتل في موكب السلطان حسن، من آثاره مسجده الذي ما زال قائما حتى الآن (ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 254/ 10).

45. المقريزي، المصدر السابق، 4/ 220.

46. هو: زين الدين، شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون، تولي حكم مصر سنة 764ه/ 1363م بعد قضائه علي يلبغا، عرف بلينه وحبه للخير، واهتمامه بالعلم والعلماء، اغتاله المماليك، ودفن في قبة مدرسة أمه (ينظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، 2/ 190، والمقريزي، المصدر السابق، 4/ 267 5/ 14).

47. ابن أبي حجلة، منطق الطير، 63/ ظ.

48. هو: يلبغا بن عبد الله الخاصكي، كبير الأمراء في وقته، ارتقى المناصب العليا في البلاد ووصل إلى حد قتل أستاذه السلطان حسن، فأصبح الحاكم الحقيقي لدولة المماليك، قتل بأمر من السلطان الأشرف شعبان (ينظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، 4/ 438440).

49. مرت ترجمته.

50. كذا في الأصل.

51. مرت ترجمته.

52. ينظر: المقريزي، المصدر السابق، 312/ 4 314.

53. فهرس دار الكتب المصرية، 4/ 48.

54. ابن أبي حجلة، الديوان، ص200203.

55. هو: سيف الدين، إشقتمر بن عبد الله المارديني الناصري، من رجال دولة المماليك، تولى نيابة الشام وحلب عدة مرات، وفتح مدينة سيس (ينظر: ابن تغري بردي، النجومالزاهرة، 12/ 323324).

56. ينظر: المقريزي، المصدر السابق، 377/ 4.

57. ينظر: ابن أبي حجلة، الديوان، ص197.

المصادر والمراجع:

أولا: المخطوطات:

- ابن أبي حجلة، شهاب الدين، أحمد بن يحي بن أبي بكر التلمساني (ت 776ه/):

01. **دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة**، نسخة مصورة من مكتبة الإسكوريال بمدريد، رقم: 1772، في 88 ورقة، دون تاريخ نسخ ولا اسم الناسخ.

02. **مغناطيس الدر النفيس**، نسخة مصورة من مكتبة جامعة ييل بنيوهافن في الولايات المتحدة الأمريكية، في 21 ورقة، كتبت سنة 1302ه/ 1885م، دون اسم الناسخ.

03. **منطق الطير**، نسخة مصورة من المكتبة الملكية بالرباط، رقم: 1910، في 128 ورقة، دون تاريخ نسخ ولا اسم الناسخ.

- السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911ه/ 1505م):

04. **كشف الغمى في فضل الحمى**، نسخة مصورة من مكتبة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، في 25 ورقة، كتبت سنة 957ه/ 1548م، نسخها عيسى بن محمد بن عبد الله الحسيني السمرقندي الشافعي.

05. **كوكب الروضة**، نسخة مصورة من مكتبة الدولة ببرلين بألمانيا، رقم: 1611، في 107 ورقة، 1292ه/ 1875م، نسخها علي سالم بن الشيخ محمد سالم الشافعي.

ثانيا : المطبوعات:

- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874ه/ 1469م):

06. **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، تحقيق محمد محمد أمين، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1404ه/ 1984م.

07. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية،ط1، 1413ه/ 1992م.

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد (ت 852ه/ 1448م):

08. **إنباء الغمر بأبناء العمر**، تحقيق حسن حبشي، مصر، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1389ه/ 1969م.

09. **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، الهند، حيدر آباد،دائرة المعارف العثمانية، 1349ه/ 1930م.

- ابن أبي حجلة، شهاب الدين، أحمد بن يحي بن أبي بكر التلمساني (ت 776ه/ 1374م):

10. **أنموذج القتال في نقل العوال**، تحقيق الشيخ عبد القادر علي، الجزائر، دار زمورة للنشر والتوزيع، ط1، 1429ه/ 2011م.

11. **ديوان ابن أبي حجلة**، تحقيق مجاهد مصطفى بهجت، الجزائر، كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، ط1، 1429ه/ 2011م.

12. **سكردان السلطان**، تحقيق علي محمد عمر، الجزائر، دار زمورة للنشر والتوزيع، ط1، 1429ه/ 2011م.

- السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911ه/ 1505م):

13. **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1387ه/ 1967م.

- صالحية، محمد عيسى.

14. **المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع**، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، ط1، 1993م.

- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 821ه/ 1418م):

15. **صبح الأعشى**، مصر، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1338ه/ 1919م.

- المقريزي، تقي الدين، أحمد بن علي (ت 845ه/ 1442م):

16. **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1417ه/ 1997م.

- ياقوت الحموي، شهاب الدين، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626ه/ 1229م):

17. **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر، ط2، 1416ه/ 1995م.